الأعلام والرايات

للأستاذ أحمد رمزي بك

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفانها ... بني أصفر بالراعفات الملازم
فقلبي فلسطيناً وتحيي جزائراً ... وتملك من يونان أرض الأساحم(١)

إن التاريخ الإسلامي بأكمله لا يزال بكراً لم يدرس بعد الدراسة العلمية الصحيحة. وأغلب ما نشر من الكتب الحديثة عنه هو من قبيل جمع المعلومات وتبويبها ولذلك جاء أكثر ما بين أيدينا من المطبوعات وهو لا يتعرض لحل مشكلة من مشكلات البحث ولا قضى بأمر نهائي في مسألة مستعصاة.

وقد أثير أخيراً في مجلة الرسالة موضوع لون الراية التي اتخذها صلاح الدين لجنوده(٢)، واتخاذه اللون الأصفر الذي بقي علماً للأيوبيين وللوك مصر من دولتي الأتراك والشراكسة.

والكتابة عن موضوع الأعلام وألوانها، قد تكون جزءاً من الكتابة عن أنظمة الجيوش الإسلامية وتقاليدها، وقد تكون جزءاً مما أطلق عليه القدماء اسم ترتيب المملكة ونظام المواكب العظام ...

(١) الروضتين جزء ٢ ص ١١٦.

(٢) الرسالة عدد ٨٢٠ ص ٢٤٢ بحث الأستاذ أحمد أحمد بدوي المدرس بكلية دار العلوم عن القوة الحربية لمصر والشام في عصر حروب الصليبيين

الطبيعية والميكانيكا ... فوضعت بذلك أسس النهضة العلمية في أوربا حين كان الغرب يغط في سبات عميق ويرسف في أغلال من الجهل والعمى.

وغفلت عن أن المكتبة العربية التي بين أيدينا الآن لا تمثل إلا خمسة في المائة من إنتاج الذهن العربي الشرقي، فلطالما عبث بها الفاتحون فأوسعوها حرقاً وتمزيقاً وقذفاً في أعماق النهر.

لذلك — يا صاحبي — تؤمن في قرارة نفسك بما أقول، ولكنك ليست القيمة ذات مرة ... ليستها انتزل عن كرامتك ولتنفيذ المعاني السامية للوطن والدين واللغة.

فاضل محمود حبيب

ويدخل في ترتيب المملكة نظام الملك وتقاليده وأبهته وقواعد المراسم في الحفلات العامة.

وكل هذه المسائل لم تدرس بعد الدراسة الكافية في الدول الإسلامية ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين إلى نهاية الدولة المملوكية أو إلى نهاية الدولة العثمانية، ثم قيام الأسرة العلوية بمصر.

وقد تعرض لمثل هذه الأبحاث المرحوم جورجي زيدان بك في كتابه عن تاريخ التمدن الإسلامي، واعتقد أن ما جاء في هذا الكتاب هو من قبيل جمع المعلومات المتفرقة، لا من قبيل الدراسة العلمية الصحيحة، ولم يصل إلى علمي بعد أن هناك من تعرض لدراسة هذه الأمور دراسة علمية سوى الأستاذ «ماير» بالجامعة العبرية بمدينة القدس الذي أخرج كتاباً عن «الرنوك» فوضع بذلك أساساً علمياً يصح أن يتخذ لزيادة الأبحاث وتطورها ومعرفة أصول الرنوك وألوانها وهو عمل يحتاج إلى عناية وتدقيق والمام باللغات الشرقية ومدنيات الشعوب الطورانية ولهجاتها ومقدار تأثرها بمدنيات آسيا وكل هذا عمل لا شك أن المستقبل كفيل بتحقيقه.

أما ما يخص جانبي ترتيب المملكة وتنظيم الجيوش، فكل دولة من الدول الإسلامية لها طابعها الخاص بها. ويمكن فيما يخص مصر أن نقسم البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ترتيب المملكة في زمن الخلفاء الراشدين إلى آخر الدولة الأخشيدية.

القسم الثاني: الدولة الفاطمية.

القسم الثالث: الدول الإسلامية التي بدأت من عهد صلاح الدين إلى ابتداء الحملة الفرنسية.

أما الكلام عن القسم الأول، فكان ولا يزال ميداناً للبحث والاكتشاف العلمي وجمع المعلومات، ويظهر أنه كان محاطاً بالغموض في العصور الماضية بدليل أن صاحب صبح الأعشى يقول إنه لم يتحر له معرفة ترتيب المملكة فيها، والظاهر له أن أغلب النواب والأمراء حينئذ كانوا على هيئة العرب واستمروا كذلك حتى ولي مصر أحمد بن طولون وأبناؤه فأحدثوا فيها ترتيب الملك. وهذا الباب الأخير من القسم الأول أي من ابتداء الدولة الطولونية

إلى نهاية الأخشيدية يحتاج إلى عناية الباحثين ، والدخول فيه عسير لأن مواده لا تزال قيد البحث والتنسيق .

فإذا دخلنا العصر الفاطمي ، نجد أنه كان موضع عناية المتقدمين وأن بين أيدينا مادة للبحث مدونة ومبوبة وصالحة للدرس والمقارنة .

أي أنه يسع الكاتب أن يتناول ترتيب المملكة من جهة نظام الملك وتقاليده وأبهته وقواعد المراسم في الحفلات العامة كما قلنا ، ثم يعرض للابس التشريفة الكبرى وما كان يلبسه الخاصة والعامة والجند والأمراء ، ثم يخلص إلى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العامة كالتاج وشدة الوقار والمظلة وغيرها .

أما الأعلام في العهد الفاطمي بالذات ، فيحتاج درسها إلى احتراس شديد ، وكذلك دراسة السلاح وأصناف الجند وتسلحهم في الصفوف والمواكب ، وأعتقد أن لدينا من المواد والمعلومات ما يجعل دراستها تحت متناول يد الباحث ، لو كان ملماً بالقواعد المعمول بها في العالم الآن ، إذ لكل دولة من الدول القائمة ومنها مصر مراسيمها الخاصة بها وتقاليدها ، كما أن لجيوش البر والبحر قواعد تختلف بعضها عن بعض ولكنها ترجع في النهاية إلى أصول متعارف عليها . وقد نجد في بعض هذه الأنظمة بقايا من آثار الشعوب الشرقية واضحاً ملموساً(١) .

فإذا اطلعنا على أنظمة الجيش البريطاني ، نجد أن قواعد الأعلام والرايات واستعمالها منظمة فيما يخص ما يرفع منها للملك وللقواد ولأصناف الفرق ، ونجد قواعد التحية بالمدفعية وأنظمة خاصة بالموسيقى(٢) .

وما يقال عن الجيش البريطاني ينصرف أيضاً إلى الجيش الإيطالي ، فقواعد التحية بالأعلام وغيرها منظمة في كتب معمول بها يطلق عليها Norme Per il Servizio di Presidio

فهذه قواعد قائمة إلى اليوم ونحن في حاجة إلى الإلمام بها وتعرفها قبل الدخول في موضوع الأعلام والرايات ولو كان الكلام عنها تاريخياً ؛ إذ أن إخراج ما في بطون الكتب من المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى تفهم ما يجري به النظام والعرف في الوقت الحاضر الذي يجري عملنا على أساس علمي .

* * *

قرأت في البحث القيم الذي نشرته مجلة الرسالة للأستاذ بدوي قوله في تبرير اختيار صلاح الدين للراية الصفراء « وكأن في ذلك إشارة إلى أن مصر وإن كانت قد عادت إلى أحضان الدولة العباسية — فهي مستقلة ذات كيان خاص بها » .

وأختلف معه فأقول :

أولا : إن إعادة الخطبة لبني العباس لم يجعل من مصر ولاية عباسية وإنما كان هذا العمل دينياً أكثر منه سياسياً أو إذا شئت هو إعادة اعتبار المذهب السني وضم ولاية من الولايات إلى الأقطار التي تدين بالولاء الديني لخليفة بغداد(١) .

ثانياً : إن صلاح الدين حينما اتخذ اللون الأصفر وإن كان يؤمل في الاستقلال بولاية أو سلطنة لم يقصد ولم يبرر عمله باختيار لون خاص يضعه على أعلامه .

إذن علينا أن ندرس لون العلم على أساس غير هذه الناحية التي أشار إليها الأستاذ بدوي ويخيل إلي أن العصر امتاز بوجود نظامين : نظام الخلافة السياسية ، ونظام الملك . وعلى هذا يمكن استخلاص بعض الحقائق اللازمة لهذا الاختيار :

للخليفة شعارها وللسلطان شعارها :

إن اختيار اللون الأسود لبني العباس قديم والكلام عنه يخرجنا عن غايتنا . وهو لون اشتهر به بنو العباس وأصبح شعاراً لهم منذ إنشاء الدولة العباسية ولا يفهم من هذا أن نظام الدولة العباسية وترتيب الملك فيها حرّم استعمال لون آخر بل كان للدولة عدة رايات وأعلام مختلفة اللون والشكل بدليل ما جاء في الطبري أن أحد الخلفاء وأظنه المتوكل على الله نصب علماً أبيض اللون وسماه لواء السحاب وهذه ناحية كما قلت تبعدنا عن الغرض الذي رسمناه لأنفسنا . ولذلك أعود إلى القرن السادس الهجري وأقول : إنه ورث ما كان متبعاً في القرنين السابقين : الخامس والرابع ، أي إبان من دولة بني بويه ثم قيام الدولة السلجوقية

(١) يبدو هذا الأثر واضحاً في نظام موسيقى الجيوش الأوربية وفي أنظمة كتائب الفرسان مثل « الإهلان » في ألمانيا وبولونيا .

(٢) Kings Regulations and orders for the Army

(١) وهو ما يدخل في التفويض العام الذي كان يصدر من دار الخلافة للمتغلبين من السلاطين « تفيده الأمور فيما بثت الدعوة من جميع الممالك » .

فالذي أنه هو أن العالم الإسلامي الذي يدين بالولاء الديني لبني العباس عاش في تلك الحقبة من الزمن وبلاده تحمل شعارين : شعار الخلافة بأعلامها وألويتها وتقاليدها وشعار المملكة أو السلطنة بترتيبها وألويتها وأعلامها .

ولم يكن هناك ما يحول دون قيام الشعارين أو النظامين في وقت واحد ولذلك أجزم بأن صلاح الدين حينما أعلن الخطبة لبني العباس وأقام شعائرهم في المساجد جاء إلى مصر ومعه شعائر السلطنة أو المملكة المتغلبة . وهي منبثقة من نظام الدولة السلجوقية التي كان يتبعها الأتابكة ولو في مظاهرها وشعائرها ، ومنهم نور الدين الشهيد الذي فتح صلاح الدين مصر باسمه . وكان تابعاً له وقائداً من قواده على رأس جنود من التركمان والأكراد الذين يدينون بالولاء للدولة الأتابكية التي تخضع في أنظمتها وتقاليدها لآل سلجوق الذين يمثلهم رغم استقلال الولايات وتغلب المتغلبين عليهم ما يطلق عليه .

سلطان السلجوقيين أو ملك الملوك :

وكان هذا اللقب من مسميات الدولة السلجوقية وهو لا يطلق إلا على من يكون في ولايته ملوك تحت سيطرته . فالملك في نظرهم من يملك مثل الشام أو مصر أو مثل أفريقية أو الأندلس وتكون عدة عسكره عشرة آلاف فارس على الأقل[1] .

فإن زاد بلاداً أو عدداً في الجيش كان أعظم في السلطنة وجاز له أن يطلق عليه السلطان الأعظم فإن خطب له في مثل مصر والشام والجزيرة ، ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ، ومثل أفريقية والمغرب الأوسط والأندلس كان سمته سلطان السلاطين كالسلجوقية ا هـ . قاله ابن فضل الله في المسالك نقلا عن علي ابن سعيد[2] .

تقليد سلطان السلجوقية :

ولدينا وصف كامل للمراسم التي اتبعتها خلافة بغداد في تقليد سلطان السلاجقة وهي جديرة بالتأمل والدرس ؛ لأنها تعطينا صورة حية لأساليب هذا العصر[3] ثم تجعلنا نعود إلى أوائل دولة بني بويه فنجد أن هذا التقليد اتبع في عهد عضد الدولة فناخسرو الذي كان أول من خوطب في الإسلام بالملك شاهنشاه[1] . ولدينا صورة لتقليد صمصام الدولة سنة ٣٧٣ هـ لا تختلف في مظاهرها عن تقليد السلطان السلجوقي سنة ٤٤٧هـ[2] . ونعود إلى هذه الحفلة فنعرضها كما جاءت في كتب الأقدمين :

جلس الخليفة القائم بأمر الله يوم السبت ٢٥ ذي القعدة سنة ٤٤٧ هـ دخل عليه سلطان السلاطين طغرل بك .

توّج وطُوّق وسُوّر .

أفيضت عليه سبع خلع سود في زيق واحد واتخذت له بها مملكة الأقاليم السبعة .

شرف بعمامة سمكيه مذهبه لجمع بين تاجي العرب والعجم .

لقب بالمتوج والمعمم .

قلد سيفاً محلى بالذهب .

عاد وجلس على الكرسي .

قام ورام تقبيل الأرض فلم يتمكن لوضع التاج الخسروي .

سأل مصافحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين

قلده سيفاً آخر كان بين يديه .

ختم له بتقليد السيفين ، فقلد ولاية الدولتين .

خاطبه بملك الشرق والمغرب .

من ذلك يتضح أن تقليد الخليفة للسلطان تم بمقتضى مراسم موضوعة روعي فيها جلال سلطان الخلافة وعظمة سلطان الأرض

قارن هذه المراسم بحرص الملك الظاهر بيبرس أن يتم تقليده طبقاً لها عند إعادته للخلافة العباسية في مصر مع اختلاف في بعض مظاهرها .

(الكلام بقية)

أحمد رمزي

---

(١) المنتظم من تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ص ١١٣ ج ٧

(٢) بنو بويه سنة ٣٧٣ هـ ذيل كتاب تجارب الأمم لوزير أبي شجاع الملقب ظهير الدين الروزراوي ص ٨٤٠ وفيها ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة وخلع عليه الخلع السبع والسمة السوداء وسور وطوق وتوج ، وعقد له لواءان وحمل على فرس بموكب ذهب وقبل بين يديه سلطه وجرى عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوى من جميع الممالك وعاد للمبادرة وجددت البيعة وأطلق رسومها وأنيست الدعوى وغيرت النكة .

(١) الروضتين ج ١ ص ٣٤

(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ص ٩٢

(٣) راجع تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٣